العربيّة مرآة العرب

«خصائص اللغة العربية تحكي خصائص الأمة العربية»

أ. د. مازن المبارك(*)

تختلف الأمم فيما بينها بكثير من الصفات العامّة والخصائص، ويختلف الأفراد في الأمة الواحدة فيما بينهم بصفاتهم وخصائصهم، وكذلك تختلف اللغات التي تنطق بها الأمم بعضُها عن بعض بكثير من الصفات والخصائص، وتختلف المفردات في اللغة الواحدة وتتباين شكلًا ودلالة وقدرة على العمل وسهولة على النطق وأداء للمعنى وبلوغًا إلى الأذهان.

ولقد سمعت وقرأت إشارات كثيرة إلى تلك الصلة الحميمة بين الإنسان ولسانه، والأمة ولغتها، مما قاله الفلاسفة والحكماء والأدباء والنقّاد.

فلقد قالوا: المرء بأصغريه قلبه ولسانه.

وقالوا:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم تبق إلّا صورة اللحم والدم

وقالوا: الأسلوب هو الرجل.

وقالوا: مَن تعلّم لغة قوم أمِنَ مكرهم.

وقالوا: تكلَّمْ حتى أراك.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وقالوا: الأمم تتكلّم كما تفكّر، وتفكّر كما تتكلّم.

وقالوا:

وفي الصمت ستر للعييّ وإنما　　صحيفة لبِّ المرء أن يتكلَّما

ورأيت أن أتتبَّع مرامي هذه الأقوال لأقف على مدى ما تعبّر عنه من الحقيقة، وما تتصف به من صدق. ورأيت أن ذلك لا يتحقق إلّا بتطبيقها على اللغة التي أعرف صفاتها وخصائصها، والأمة التي عرفتها في تاريخها ومراحل عمرها، إنه البحث الذي أنظر فيه من خلال اللغة إلى فكر الناطق بها وإلى شخصيته وما يتصف به. وأنظر من خلال العربية إلى خصائص العرب أصحاب اللغة، لأرى بعد ذلك كله وجه العرب في مرآة لغتهم.

اللغة مرآة المتكلم فردًا أو جماعة:

نستطيع عن طريق اللغة أن نسبر أغوار النفس الإنسانية، ونتعرّف أفكارَ المتكلم ونزعاته وميوله، ومسارب تفكيره، ومنهجه ووضوحه، ومدى التزامه المنطق في تداعي أفكاره وتسلسل إيرادها وطريقة عرضها.

إننا نعرف الخصائص الشخصية وما يتصف به الإنسان من وضوح وصفاء، وسطحية أو عمق، وصدق وصراحةً أو مكر ودهاء، نستطيع أن نحكم على ميله إلى التعبير المباشر الصريح أو ميله إلى الاكتفاء بالإشارة والتلميح دون المجاهرة أو التصريح.

إننا من لغته وأسلوبه نستطيع أن نطلق عددًا من الأحكام على عدد كبير من صفاته النفسية والفكرية والشخصية، وأن نعرف مدى لطفه ودماثته ومجاملته أو مداهنة أو صلابته وجفائه.

إن اللغة تعبير عن الفكر، ووعاء له، وقطعة منه تلتحم به حتى تشارك

فيه وتصبح جزءًا منه لا يكاد ينفصل عنه، فالإنسان إنما يفكّر باللغة، ويعطي ألفاظها مواضعها في كلامه وعلى لسانه على وفق تسلسل أفكاره، حتى يكون ترتيب الكلمات في الجملة على وفق ترتيب الأفكار في الذهن وبذلك تكون اللغة هي فِكرهُ الناطق، ويكون فكره هو اللغة النفسية الصامتة.

ولعل أبلغ ما يدلّ على هذه الصلة القويّة بين عقل المرء ولسانه ما عبّرت عنه اللغة العربية حين جعلت الدلالة على عمل كلٍّ منهما وعلى وظيفته في قالب لغوي واحد، في كلمة واحدة عبّرت بها عن كلٍّ منهما، فقالت: هو (المنطق)!

أليس المنطق هو العلم الذي نعبّر به عن عمل العقل في صيانة الفكر من الخطأ وهو هو الذي نعبّر به عن الكلام، وعن اللغة حين جعلناه مصدرًا ميميًّا بمعنى النُّطق؟ وبهذا المعنى استُعمل في كتاب الله الكريم على لسان سيدنا سليمان الذي قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النمل: ١٦].

إن لغة العربيّ مرآة لفكره وقلبه، فإذا كان صادقًا في عروبته انتسابًا وولاءً، سليمًا في فطرته خُلُقًا ولسانًا، كان لسانه صورة عمّا في نفسه، حتى قال قائلهم: إذا تكلّم العربي قرأت في كلامه ما كتب في صحيفة قلبه:

وفي الصمت ستر للعييّ وإنما   صحيفة لبِّ المرء أن يتكلَّما

وفي هذا المعنى قيل: تكلَّمْ حتى أراك!

ولا شكَّ أن الذي عاش منّا في الغرب، وتعلّم اللغة الأجنبية وأتقنها وأصبح ذا ثقافة أجنبية غربية يعرف من أساليب الغربيين في التعبير وفي التفكير ما لا يعرفه البعيد عن تلك الثقافة.

أذكر أن إحدى الجامعات العربية التي كنت أدرّس فيها عزمت على

إصدار بيان في مناسبة قومية يُبيِّنُ رأي المثقفين العرب في تلك المناسبة، فشكل رئيس الجامعة لجنة من رئيس قسم اللغة الفرنسية ورئيس قسم اللغة الإنكليزية وجعلني معهما ممثلًا لقسم اللغة العربية، واتفقنا آنذاك على أن أضع مسوَّدة البيان وأعرضه على اللجنة، ولمّا قرأته عليهما بعد يومين نظر أحدهما إلى الآخر ثم توجَّها إليَ معًا قائلين: يا أخي، إننا فهمنا من رئيس الجامعة أنه يريد توجيه البيان إلى الغرب إلى أوربا، وأنه سيلقى ويذاع في مؤتمر يعقد هناك، فقلت: حسنًا، أنتم تترجمونه، فقالا: إن ما كتبته يصلح أن يوجّه إلى العرب وأن يخاطب به الشعب العربي، وأما الغربيّون فلهم أسلوبهم ولهم طريقة تفكيرهم، وهم لا يفكّرون كما يفكّر العرب، ولا بدَّ أن نخاطبهم بلغتهم لا بلغة عربية الأسلوب مترجمة إلى لغتهم، إننا يجب أن ننشئ البيان إنشاء بلغتهم وبأسلوب خطابهم، وهكذا كان.

ولقد عُرف ذلك منذ القديم وأصاب الحقيقةَ الخليفةُ الذكيّ الذوّاقة عمر ابن الخطّاب فقال: مَن تعلّم لغة قومٍ أمن مكرَهم! إنه لا يعني أنك إذا سمعت الأجنبي عرفت مقصده أو عرفت ما يتحدث الأجانب عنك، ولكنه يعني أن معرفتك لغتهم تؤدي بك إلى معرفة طريقة تفكيرهم، وصحيح أنك إذا عرفت طريقة تفكير خصمك عرفت أو توقّعت ردّة فعله وما سيتخذه من مواقف.

ولنعد إلى لغة العرب نستنطقها عن أحوال أهلها الناطقين بها، أو عن أحوالها المحاكية لأحوال أهلها لتحكي لنا كيف كانت مرآة للأمة في حياتها العقلية والاجتماعية والأخلاقية، كما كانت مرآة للإنسان العربي الفرد في تفكيره وسلوكه وشخصيّته.

في العربية أصول ثلاثية نسميها الجذور، وهي حروف تتكون أو تتشكل منها مجموعة كلمات، نسمي تلك الحروف بالجذور أو الأصول،

ويسمّيها ابن فارس بالمقاييس، ونسمّي المفردات التي تتشكل منها بأبنية أو صيغ مختلفة بالمشتقّات.

ونجد تلك الأحرف الثلاثة تدور مع الكلمات كيفما دارت ومهما تختلف أبنيتها أو تتصرّف ما بين أفعال وأسماء؛ فالعين واللام والميم مثلًا ثابتة في كل من عَلم، يعلم، عالِم، عالَم، معلوم، علامة، علّامة، إعلام، استعلامات، معلومات، ولكلٍّ من هذه الكلمات معناها الخاص بها، ولها كلها - كما لكل مجموعة من الكلمات تشترك بالأصول الثلاثة - معنى عامّ يجمعها.

وهي في اللغة صورة لما في الحياة من اختلاف الأفراد في الأسرة الواحدة بصفات فردية يتمايزون بها، وفي اجتماعهم جميعًا بعد ذلك باسم واحدة هو اسم الأسرة واللقب الذي يجمعهم كما يجمع الأصلُ الثلاثيُّ مشتقّاتِه.

وكما يختلف الأخ عن أخيه في الأسرة الواحدة شكلًا، يختلف المشتقُّ عن أخيه في الصيغة أو البنية أو الشكل.

ونتابع الأفراد وأسرهم في حياتهم الاجتماعية فنراهم كمفردات لغتهم تفرّقًا واجتماعًا، يجتمع الإخوة والأخوات في الأسرة العربية في خباء أو في بيت واحدٍ كما تجتمع المشتقات تحت عنوان أسرتها الذي هو الجذر اللغوي في الباب الواحد في المعجم. ولعل هذا يظهر حين نوازن بين العربية وغيرها أو حين نقرنها بغيرها من اللغات الأجنبية!

نجد: الأخ والأخت والإخوة والإخوان والأخوّة كلّها في المعجم في بيت (أخو). ونجد: الابن والابنة والبنت والأبناء والبنوّة في بيت واحد يضم الجميع، وهكذا يجتمع أفراد الأسرة العربية في المجتمع كما في اللغة في بيت واحد يضم الجميع وأين هذا من صورة المجتمع الغربي الذي تحكي لغته بتفرّق جذورها في معجمها تفرّقَ أبنائه في مساكنهم وتباعدهم في

حياتهم! فأين مكان Frère من مكان Sœur؟ في الفرنسية، وأين مكان Brother من Sister في الإنكليزية؟

وأنظر إلى كلمتي (أب) و(ابن) في العربية فألمح في (الابن) زيادة حرف على كلمته (الأب)، وكأنها زيادة في البنية اللغوية للابن تحكي زيادةً أو امتدادًا في اللفظ يحكي امتدادًا لحياة الأب في حياة الابن.

لقد عرف عن العرب عنايتهم بأنسابهم، وعرف عنهم تمييزهم بين العربيّ القح أو المحض وبين المُعرّف والهجين والدَّعيّ..

وعرفت عنهم حياة اجتماعية راقية في إنسانيّتها، لا يتفرّق فيها أبناء الأسرة الواحدة، ولا تتباعد مساكنهم، فإن تباعدت جمعتهم أنسابهم وظلت الأبوّة والبنوّة والبطن والعشيرة والقبيلة جامعةً لهم، وكذلك تجتمع لغتهم في أسرٍ لغوية تجمع بينها أنساب الجذور والأصول اللغوية التي عبّر عنها ابن فارس في معجم المقاييس.

لقد كانت الأُرومة أو الجذر أو الأصل جامعًا للعرب نسبًا وانتماء قوميًّا، كما كانت في لغتهم جامعًا للمفردات والألفاظ نسبًا لغويًّا.

لقد عاشت الألفاظ العربية في مجموعات وأسر ولّدها الاشتقاق من جذر واحد، كما عاشت الأمة العربية في بطون وقبائل يجمعها النسب إلى جَدّ واحد. وتباينت الكلمات بالصيغ والأشكال، وحملت كل منها أحرفًا هي هويّة انتسابها إلى الجذر، كما تباين الأفراد بأسمائهم وأشكالهم، وبقي النسب دليلًا على وحدة الأصل.

وكما لم يمنع النسب أصحابَه من السياحة والانتشار في الأرض، والانفتاح على العالم وعلى ثقافاته، كذلك لم يحل الانتساب إلى الجذر اللغوي دون النماء والاشتقاق والتوليد، ولم يبق محصورًا في بيئته العربية

بل امتزج بالثقافات واحتكّ باللغات فأخذ وأعطى، وولّد وعرّب؛ فكان النماء مع المحافظة على الأصل، وكان الاختلاط مع الاحتفاظ بالنسب، وكان الاتساع والازدهار مع الارتباط بالأصول والجذور.. وتلك هي الصفات التي تكفّلت للعرب ولغتهم بالخلود.

وكذلك كانت العربيّة مرآةً عكست صورة الأمة في أساليب تفكيرها، وفي بيان مواقفها من العقائد والمذاهب والعواطف والمواجد.

وكانت الحبلَ أو الرباط الفكري المتَّصل بين ماضي الأمة وحاضرها، فحملت إلينا أخبار الرجال حتى كدنا نراهم فيها ونسمع أصواتهم في ألفاظها، وحملت إلينا أحداث التاريخ حتى عشنا معهم فيه وكأننا عاصرناه.. وكان كل مقطع من مقاطعها، وكلّ نصّ من نصوصها، وكلّ بيتٍ من شعرها، مخزنًا أو مَعينًا لا ينضب من المعاني والدلالات، ومن الرموز والإيحاءات!

وإذا وقفت مع ألفاظها ومفرداتها حدّثتك بأسرار القُرب فيما بينها، فالجَوْر مثلًا هو الظلم، وجار عليه: ظلمه. وأما جارُه فهو مَن كان مجاورًا له أو مقيمًا في جواره، وعليه فإن معنى أجاره دفع عنه الظلم وكان مجيرًا له. وهكذا كان ما بين جار وأجار بعدُ ما بين جائر ومجير!

وإذا وازنت بين الجهاد والصراع والكفاح والنضال رجّحت الجهاد لأنها من الجَهد والجُهد وهو بمعنى الطاقة أي أقصى ما في الوسع، لذلك قيل لبلوغ أقصى الغاية في الدرس أو العمل: الاجتهادُ، وللغاية في كبح جماع النفس، أو مقاتلة العدوّ: المجاهدة.

ونقول للرجل امرؤ، وللأنثى امرأة، وذلك لما يتصف به كلّ منهما من المروءة والإنسانية.

ونقول لكلّ ما هو إلى اليُسر والسهولة: سهل، فالأمر سهل أي يسير،

وللأرض سهل إذا خلت من الوعورة وسهُل السير فيها.

ونقول لكل ما يسترك أو يخبِّئك: خباء، وهو من صوف أو وَبَر، فإذا كان مبنيًّا ثابتًا فبناء، ولما كان للمبيت ليلًا أو للسَّكن فهو بيت ومسكن.

وكذلك مئات الكلمات التي تلقي جذورُها الظلالَ على معاني مفرداتها، وتكاد ألفاظها تشفّ عن دلالاتها. وقد توهم بعض الألفاظ بالتباعد بعضها عن بعض كالأشجار الوارفة الظلال، والمشاجرات الناشبة بين المتقاتلين، على حين أنها واحدة تعود جميعها إلى الاشتجار أي الاشتباك؛ فكما تتداخل أغصان الأشجار وتشتبك، كذلك تتداخل أيدي المتقاتلين وتشتجر سيوفهم، فإذا الصورة واحدة في الأمرين، وهو ما استثمره البحتريّ حين قال:

شواجرُ أرماحٍ تُقطّعُ بينهم   شواجرَ أرحامٍ مَلوم قَطوعها

وانظر إلى لغة العرب بعد ذلك وهي تمثّل وضوحَ الفكر حين تعطي للشيء الواحد عشرات الأسماء لأنه يتصف بعشرات الصفات، فيكون له في حالة اتصافه بصفةٍ اسم لا يكون له حين يتصف بغيرها: كالسيف الذي هو الحسام حين يحسم، والبتّار حين يبتِرُ، والفيصل حين يفصل، والعضب حين يقطع... وهكذا.

وانظر إلى الإنسان الذي له في كل مرحلة من مراحل عمره اسم من كونه جنينًا إلى وليد فطفل فغلام فيافع فشابّ... إلى شيخوخة وكهولة وهرم..

وانظر إلى أفعاله لها في كل سنّ من عمره فعل يُعبَّر به عنه، فهو يحبو ويدرج ويخطر ويدلف ويهدج ويرسف ويختال ويهرول... إلى أنواع كثيرة تُصوِّر أنواع السير والسرعة فيه... وكذلك قل في كل حالة من حالاته كما

في تصوير خلوّ البطن من الجوع والسَّغب والطوى والمخمصة..

وفي فقه اللغة للثعالبي، ومخصَّص ابن سيده، وكفايةِ المتحفِّظ لابن الأجدابي، ما يملأُ النفس دهشة وإعجابًا بكثرة ذلك في اللغة.

ولعل من الجدير الإشارة إلى أن في مفردات العربية جانبًا آخر تعبّر فيه تلك المفردات بجذورها وأصولها عن الجانب الاجتماعي والقيم الأخلاقية التي يعيش العرب في ظلالها ويُحيُونها في حياتهم بل يَحيَوْن بها في علاقاتهم ومجتمعاتهم؛ فكما رأينا العدوان من العَدْو والتجاوز للحدود، ورأينا الجوار في دفع الظلم ورفع الجَور، كذلك نرى الصداقة في الصِّدق، ونرى الصديق عند العرب هو من صدَقك لا مَن صدَّقك، إنه صديق لك ما دام صادقًا، وإن الصلة به قائمة على قيمة أخلاقية على حين أنها عند الفرنسيين مثلًا قائمة على علاقة عاطفية هي الحبّ! إن كلمة (ami) في الفرنسية و(amour) من مادة واحدة، والصديق عندهم من تحبّه دون النظر إلى صفته! إن الصدق في العربية ضدّ الكذب، وإن الصَّدْق هو الصَّلب المستقيم من الرماح والرجال، وهو الكامل الجامع للأوصاف المحمودة، ولذلك لا يوصف عندهم بالصديق إلا صاحب الخُلُق المؤتمَن، وهم يَعجبون إذا ظهر على غير ما يقتضي الصدق والصداقة؛ قال شاعرهم (قعنب بن أم صاحب):

ما بال قومٍ صديق ثم ليس لهم   دين وليس لهم عقل إذا ائتُمنوا

وإذا كانت في الصداقة محبة وصدق مودّة، فالصديق محبوب لصدقه واستقامته وكمال أخلاقه. والعدوّ مكروه لأنه عدا حقّه وتجاوزه، والذين يتجاوزون حقوقهم أولئك هم العادون والمعتدون!

وإذا تركنا المفردات وأحوالها وانتقلنا إلى اللغة في نظمها وأساليبها

رأينا في صفحتها صورة صادقة لحياة العرب في عصورهم المختلفة ما بين جاهلية كانت حياتهم فيها بسيطة واضحة، وبين عصور حضارة عرفوا فيها الحياة الراقية في السياسة والعلوم والثقافة...

لقد حكت لغتهم في الجاهلية قصةَ حياتهم بعيدًا عن التكلّف والتعقيد؛ فكانت جُملًا موجزة بسيطة خالية من الإطالة ومن أدوات العطف والوصل والربط، يفصِّلون اللفظ على قدِّ المعنى، في كثيرٍ من اتّزان الجمل، واتّساق الألفاظ، وتتابع الأسجاع. ولعلّ خطبة قسّ بن ساعدة خير مثال على لغة العرب في جاهليتهم. قال:

«يا أيها الناس، اسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت. مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، ليلٌ داج، وسماء ذات أبراج، بحار تزخَر، ونجوم تزهَر، وضوء وظلام، وبرّ وآثام، ومطعم ومشرب، وملبس ومركب.

ما لي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون؟ أَرَضُوا بالمُقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا؟...». أليست في هذه الجمل الموجزة صورة الأعرابي الذي نظرتْ عينُه إلى ما حوله من آيات الكون بسمائه وأرضه، وليله ونهاره، ونظر بفكره إلى قوافل الموتى فرسم بألفاظه الصورَ التي رأى، ولم تكن اللغة لتتجاوز في التعبير اللمحةَ في النظر والخاطرة في الفكر.

وخطب الحجّاج (ت٩٥هـ) مهدّدًا أهل البصرة فقال:

«أيها الناس: مَن أعياه داؤه، فعندي دواؤه. ومن استطال أجلُه، فعليَّ أن أعجِّله. ومن ثقل عليه رأسُه، وضعتُ عنه ثِقْلَه. ومن استطال ماضي عمره، قصَّرتُ عليه باقيَه. إنّ للشيطان طيفا، وللسلطان سيفا، فمن سقُمت سريرتُه، صحَّتْ عقوبتُه، ومن وضَعه ذنْبُه، رفعه صَلْبُه. ومن لم تسعْه العافية، لم

تضِق عنه التهلكة. ومن سبقته بادرةُ فمِه، سبق بدنَه بسفك دمه...».

أليست هذه الخطبة لوحةً لغوية أخرى؟ أليست صورةً لقائدٍ عسكري يهدّد ويتوعّد، بل يصدر أوامر عسكرية مقتضَبة موجزة، بلا مقدّمات ولا تعليلات، إنها أوامر وبلاغات لا تكاد تصدر حتى يتسابق السامعون إلى التنفيذ. إنها اللغة التي لا تترك للسامع فرصة للتفكير، وكل من فكّر بعدها بفتح فمه، فقد استعجل بسفك دمه!

ثم تنتقل الأمة بعد مئة سنة أخرى إلى عصر الدولة المستقرَّة المنفتحة على العلوم وعلى الترجمة، فإذا اللغة داخلة مع أصحابها ميادينَ العلوم، معبّرة عن الفكر في نضجه وعمقه وتنوّعه، وعن النفس الإنسانية وعن الروح في الفلسفة والتصوّف والمواجد والأحاسيس، وإذا هي لغة الأدب عقلًا وقلبًا وشعورًا، ولغة الفكر والعلم ترجمة وإبداعًا.

لقد بقيت اللغة العربية في عصورها المختلفة صورة للأمة العربية، وكانت مصداقًا لقول «هردر»: الأمة تتكلم كما تفكّر، وتفكّر كما تتكلّم.

وبقيت اللغة العربية الفصيحة وحدها المرآة الواضحة للأمة العربية كلَّ الوضوح فكانت لغة ذات روعة وعزّة، وسيادة ورفعة، حين كانت الأمة نفسها منيعة عزيزة سيّدة في ديارها. ثم آلت العربية إلى ما آل إليه أمر الأمة الناطقة بها من استخذاء وشعور بالضعف والمهانة والصَّغار أمام كلِّ دخيل.

لقد هيمن الدخلاء من المستعمرين على بلاد العرب عصورًا طويلة، ففرّقوا دولتهم دولًا، وجعلوهم شعوبًا ممزّقة في دويلات وأقطار، فانحسر ظِلُّ حضارتهم، وخبت شمسهم وضعفوا فضعفت لغتهم، ولانت عصبيَّتهم، وهانوا على أنفسهم فهانوا على أعدائهم، وهانت عليهم لغتهم، وفقدت سيادتها في كثير من ديارهم وأقطارهم، ولا سيادة لأمة لا سيادة للغتها في وطنها.

وبعد، فليقل المتحدّثون عن العربية ما يشاؤون؛ إنهم يتحدثون عمّا وراء لغتهم من صور نفوسهم وعقولهم، ويتحدثون عمّا وراء العربية - من صورة أمتهم - فلسانك مرآتك، والعربية مرآة العرب.

فاتركوا مرآة أمتكم مشرقة مضيئة ولا تشوّهوها بألسنة معوجّة وأقلام عاجزة.

وكم قالت اللغة الأمّ: إنّ كُفرَ النعمة لؤم.

وكم قالت الأقلام: إن صحبة الجاهل شؤم.

فاذكروا نعمة (البيان)، سبحان من خلق الإنسان، علّمه البيان.

واذكروا فضل (القلم) والذي علّم به ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٣-٤].

ولْيجعل كلُّ ناطقٍ بلسانه، وكلُّ كاتب بقلمه، لغتَه المنطوقة أو المكتوبة، صورةَ عقله، وعنوانَ شخصيّته، ودليل نسبه إلى أمّته.

* * *